دور الأساليب البلاغية في تصوير المفاهيم التربوية (سورة النور دراسة وتطبيقاً)

إعداد الدكتور / عبد الحكيم أحمد سر الختم جيني

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

دور الأساليب البلاغية في تصوير المفاهيم التربوية (سورة النور دراسة وتطبيقاً)

عبد الحكيم أحمد سر الختم جيني*

ملخص بحث:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، سيدنا محمد، الذي أسلم إليه ربه زمام البلاغة، فكان أحق بها وأهلها وعلى آله وصحبه أجمعين. وبعد ...

لا شك أن للأساليب البلاغية دوراً كبيراً في التعرف على أسرار الإعجاز القرآني، بها يعرف لطائف الذكر الحكيم، وبها تعرف الحقائق والمفاهيم، وبها تتحقق أغراض الدنيا والدين.

ومن خلال هذه الأساليب استطاع الباحثون والقراء أن يرتعوا في ربيع القرآن الكريم، لا سيما سورة النور، تلك السورة التي تمثل العلاج التربوي الناجع لكثير من المشكلات التي نعاني منها وتعاني منها المجتمعات قديمها وحديثها. لذا جاء هذا البحث موسوماً بعنوان: (دور الأساليب البلاغية في تصوير المفاهيم التربوية (سورة النور دراسة وتطبيقاً).

والمحور الذي تدور حوله السورة كلها هو محور التربية، حيث تبدأ السورة بمقدمة إعلانية رائعة موقظة، تحوي ما يأتي بعدها من مفاهيم، عقابية تارة وتربوية تارة أخرى.

يأتي في مقدمة هذه المفاهيم بيان حد الزنا وتشنيعه والتشهير بمرتكبيه، وقطع الصلة بينهم وبين المجتمع المسلم، ثم بيان حد القذف، سواء كان ذلك بين الأزواج أو

* أستاذ البلاغة والنقد المشارك، بجامعة القرآن الكريم وتأصيل العلوم- السودان.

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

غيرهم من أفراد المجتمع. ثم يأتي حديث الإفك، ويختم ذلك بأن الخبيثين للخبيثات، والخبيثات للخبيثين.

تتوالى بعد ذلك مجموعة من الآداب التي تتضمنها السورة، فالإسلام لا يعتمد على العقوبة وحدها في إنشاء مجتمعه النظيف، بل يعتمد قبل كل شيء على الوقاية، وذلك بتوفير المناخ الملائم لطبيعة البشر وفطرته التي فطره الله عليها.

جاء بيان ذلك كله بأساليب بلاغية معجزة رائعة، تقف شاهداً على ما يميز النظم القرآني الذي تتحقق به الأغراض الدينية التربوية .

وقد تمثلت أهمية هذا البحث في كونه فرصة للباحث يتقرب بها إلى الله تعالى، موضحاً أثر المصطلحات البلاغية في تصوير المفاهيم التربوية، ومؤصلاً لقضية المصطلح البلاغي، مبيناً دوره في الإبداع الفني و تعزيز منهج الاستدلال .

ولطبيعة هذا البحث فقد اتبع فيه المنهج الوصفي والتحليلي، للوصول إلى نتائج تمثلت في اشتمال سورة النور على قيم أخلاقية وسلوكيات تربوية، متكئة على كنوز من الأسرار والدلالات البلاغية، التي ينبغي أن تتجه إليها جهود الباحثين في الدراسات القرآنية لإظهارها ومعرفة خصائصها .

مقدمة:

القرآن الكريم كتاب الله الخالد المعجز، يخاطب العقل والقلب والوجدان، ويصلح الفرد والأسرة والمجتمع على مر العصور والأزمان، بأسلوب بليغ مقنع حاسم، يبسط من الشواهد ما يقنع، ويسرد من الأدلة ما يلزم، بسياق أدبي بلاغي معجز، تنفتح له العقول والقلوب هادياً للتي هي أقوم .

ولا شك أن للأساليب البلاغية دوراً كبيراً في التعرف على أسرار هذا الإعجاز وما يميز النظم القرآني الذي به تتحقق الأغراض الدينية والتربوية . فهي مفتاح النص الكاشف لأسراره ومعانيه، إذ بدونها لا تستقيم الدلالات ولا تتضح الإشارات ولا لطائف ما في الذكر الحكيم .

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

"فعلم التفسير لا يتم تعاطيه وإجالة النظر فيه كل ذي علم، فالفقيه وإن برَّز على الأقران في علم الفتاوى والأحكام، والمتكلم وإن برَّ أهل الدنيا في صناعة الكلام، وحافظ القصص والأخبار وإن كان من ابن القرْية أحفظ، والواعظ وإن كان من الحسن البصري أوعظ، والنحوي وإن كان أنحى من سيبويه، واللغوي وإن علك اللغات بقوة لحيي، لا يتصدى منهم أحد لسلوك تلك الطرائق، ولا يغوص على شيء من تلك الحقائق إلاّ رجل قد برع في علمين مختصين بالقرآن، هما علم المعاني وعلم البيان" [1].

ومن هنا يُعلم أن التفسير ليس معرفة معاني القرآن فحسب، بل هو أيضاً بيان لأسرار إعجازه، ولا يتم ذلك إلا لمن ملك آلة البلاغة، وعرف وجوه الأساليب وخصائصها المعنوية، وتجرد لذلك ونقر وبحث .

وقد اهتمت سورة النور - كغيرها من سور القرآن - اهتماماً كبيراً بمكانة الأخلاق؛ لما لها من دور تأصيلي للعقيدة الإسلامية . فجاء في مطلعها إعلان قوي حاسم لقضايا أخلاقية تربوية مهمة، يتمثل هذا الإعلان في قوله تعالى: ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [2] .

هذه السورة - سورة النور- تدور في عدة محاور، تتدرج كلها تحت محور التربية؛ المحور الشامل الذي يتمثل في لمسات وجدانية رقيقة، تصل قلب المسلم بنور الله المبثوث في ثنايا الكون والحياة . وتأتي السورة وفق محورها الأساس في ثلاث قضايا تتضح مضامينها من خلال الأساليب البلاغية المتعددة .

القضية الأولى: تمثل العنوان الحاسم الذي تبدأ به هذه السورة، وما يكتنفه من تشنيع الزنا وبيان حده، ثم توضيح حد القذف بنوعيه، ثم تختم القضية بعد حديث الإفك وقصته .

---

(1) الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل: محمود بن عمر الزمخشري، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ٣/١ .

(٢) سورة النور الآية (١) .

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

والقضية الثانية: تتمثل في وسائل الوقاية من هذه الجريمة النكراء، ويأتي آداب البيوت والاستئذان أول هذه الوسائل، يليها غض البصر والنهي عن التبرج، ثم الحض على إنكاح الأيامى والصالحين والتحذير من إكراه الفتيات على البغاء.

أما الثالثة: فهي آداب اجتماعية تربوية تضمنتها السورة، مرتبطة بنور الله تعالى.

أهمية البحث ودواعي اختياره:

تكمن أهميه هذا البحث في الآتي:

١. كونه فرصة للباحث يتقرب بها إلى الله تعالى .
٢. يبين أثر المصطلحات البلاغية في توضيح المفاهيم التربوية .
٣. يؤصل لقضية المصطلح البلاغي باعتباره وسيلة استنباطية معرفية .
٤. يوضح خصوصيات المصطلح البلاغي ودوره في الإبداع الفني .
٥. يوضح دور المصطلح البلاغي في تعزيز منهج الاستدلال .
٦. يوضح أهمية الأساليب البلاغية التي بدونها لا تعرف الإشارات، ولا تستقيم الدلالات ولا يعرف لطائف الذكر الحكيم .
٧. استجابة للآراء الداعية بتحريك المصطلح البلاغي من جموده، وذلك بتطبيقه ودراسته من خلال النص القرني.

أهداف البحث

١. إقامة صرح البلاغة العربية باحتذاء البلاغة القرآنية والنسج على منوالها، واستخراج فنونها.
٢. توضيح بعض معالم البلاغة القرآنية، واستنباط ذخائرها، واستخراج كنوزها، خدمة للإسلام واللغة العربية ومحبيها .
٣. إضافة جديدة لحقل الدراسات البلاغية، تفتح آفاقاً أرحب لدراسات أشمل وأعم

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

٤. الكشف عن القيم التعبيرية واللمسات الفنية من خلال المحاور التربوية في سورة النور.

٥. التأصيل لبعض مباحث البلاغة العربية؛ بالبحث في النص القرآني باعتباره المصدر الأول للتشريع.

٦. الإسهام في إحياء الدرس البلاغي ووضع صورة لمناهجه .

٧. إبراز بعض خصائص النظم القرآني المعجز.

حدود البحث:

حدود هذا البحث، بعض القضايا والمفاهيم التربوية في سورة النور، متمثلة في التحذير من الفواحش وبيان عقوبة مرتكبيها، وطرق الوقاية منها، وبعض الآداب العامة التي تضمنتها السورة، باعتبارها وسائل لحماية المجتمع الإسلامي، وذلك بإبراز دور الأساليب البلاغية، بقيمها التعبيرية، ولمساتها الفنية في تصوير تلك المفاهيم التربوية .

مشكل البحث:

يمكن صياغة مشكل البحث في الأسئلة التالية:

١. ما القيم التعبيرية واللمسات البلاغية الفنية التي تضمنتها المحاور التربوية في سورة النور؟.

٢. هل للمصطلحات البلاغية أثر في توضيح المفاهيم التربوية ؟ .

٣. ما دور المصطلح البلاغي وأثره في توضيح المفاهيم التربوية ؟.

٤. هل للمصطلح البلاغي خصوصيات ودور في قضية الإبداع الفني؟ .

٥. ما هي الخصائص التي يمتاز بها النظم القرآني في السورة الكريمة .

منهج البحث:

يُتَّبع بمشيئة الله في هذا البحث المنهج الوصفي والتحليلي .

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

هيكل البحث:

اقتضت طبيعة هذا البحث أن يقف عند قضيتين تضمنتهما سورة النور، القضية الأولى: تمثل العنوان الحاسم الذي بدأت به السورة، وما يتضمنه من تشنيع الزنا والتشهير بمرتكبيه، وقطع الصلة بينهم وبين المجتمع المسلم، وبيان حده، وتوضيح حد القذف وعقوبته، سواء كان ذلك بين الأزواج أو غيرهم من أفراد المجتمع، ويأتي الحديث عن الإفك وقصته، ثم يسدل الستار بأن الخبيثين للخبيثات، والخبيثات للخبيثين.

والقضية الثانية: تتمثل في وسائل الوقاية من هذه الجرائم النكراء، حيث يأتي آداب البيوت والاستئذان أول هذه الوسائل، يليها غض البصر والنهي عن التبرج، ثم الحض على إنكاح الأيامى والصالحين والتحذير من إكراه الفتيات على البغاء، وغيرها من وسائل التربية.

كل ذلك يأتي في مبحثين، يتبين من خلالهما أثر الأساليب البلاغة في تصوير المفاهيم، ومعرفة لطائف الذكر الحكيم. وتسبق هاذين المبحثين مقدمة، ثم يُذيل البحث بخاتمة متضمنة نتائج وتوصيات البحث.

ففي المبحث الأول: يُتناول التحذير من الفواحش، وبيان عقوبة مرتكبيها، وفي المبحث الثاني: تُفصَّل طرق الوقاية من الفواحش، بتوضيح الآداب العامة التي تصون المجتمع المسلم وتحمي بيضته.

فإن يكن الباحث قد أصاب، فهذه نعمة من الله تعالى، وإن تكن الأخرى فحسبه أن أخلص النية، ويمم وجهه شطر الصواب.

سائلاً الله تعالى أن يعين على هذا العمل، ويجعله خالصاً لوجهه، إنه سميع مجيب.

﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[1].

---

(1) سورة البقرة (الآية ٢٨٦).

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

المبحث الأول

دور الأساليب البلاغية

في التحذير من الفواحش وبيان عقوبة مرتكبيها

سورة النور: سورة عظيمة القدر، ذُكر فيها النور بلفظه متصلاً بذاته تعالى ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[1]. والنور في هذه السورة مذكور بآثاره ومظاهره في القلوب والأرواح، ممثلة هذه الآثار في الآداب والأخلاق التي يقوم عليها بناء المجتمع الإسلامي، وهي آداب وأخلاق نفسية، وعائلية، وجماعية، تنير القلب، وتنير الحياة، يربطها بذلك النور الكوني الشامل، فهو نور في الأرواح، وإشراق في القلوب، وشفافية في الضمائر، مستمدة كلها من ذلك النور الكبير[2].

وهذه السورة لما فيها من مضامين تشريعية، وأحكام فقهية وقيم تربوية؛ جاءت باستهلال فريد ورائع، تمثل في قوله تعالى: ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَٰهَا وَفَرَضْنَٰهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[3]. وهذا ما يسميه البلاغيون ببراعة الاستهلال، وهو أن يُجعل أول الكلام رقيقاً سهلاً، بحيث يجذب السامع إلى الإصغاء بكُلّيته[4]. وهذا المصطلح البلاغي قد اعتنى به البلاغيون، بل جعلوه واجب الاتّباع؛ لما له من تأثير في النفوس وإثارة لوجدان المستمع.

---

(١) سورة النور الآية (٣٥).

(٢) ينظر (في ظلال القرآن) سيد قطب، دار الشروق، القاهرة، الطبعة الشرعية العاشرة، ١٤٠١هـ ١٩٧١م، ٢٤٨٦/٤.

(٣) سورة النور الآية (١).

(٤) جواهر البلاغة، أحمد الهاشمي، تدقيق حسن نجار محمد، مكتبة الآداب، الطبعة الثانية، ١٤٢٦هـ ٢٠٠٥م، ص٣٣٩.

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

وهذا الاستهلال الوارد في بداية سورة النور قد أوجز ما في السورة من موضوعات، وجعل أذهان السامعين تتهيأ لاستقبال ما فيها من قيم وأحكام تربوية، وهي تبدأ بهذا الإعلان القوي الحاسم (سورة أنزلناها وفرضناها وأنزلنا فيها آيات بينات لعلكم تذكرون) . استهلال فريد يدل على مدى اهتمام القرآن بالعنصر الأخلاقي في الحياة، ومدى عمق هذا العنصر وأصالته في العقيدة الإسلامية، وفي فكرة الإسلام عن الحياة الإنسانية[1] . وهو إعلان يتضمن تقريراً كاملاً عن هذه السورة. فقوله: (وفرضناها) أي فرضها بكل ما فيها من حدود وتكاليف، وآداب وأخلاق.

والملاحظة في هذه الاستهلالية، أنها قد فاضت بالأساليب البلاغية التي ساعدت بدورها في لفت انتباه القارئ وشحذه بالعناية والاهتمام .

فمن هذه الأساليب: التعظيم والتفخيم، وذلك في تنكير لفظي (سورة) و(آيات) فهذه السورة وهذه الآيات عظيمة في قدرها، مميزة في أوصافها، وما اشتملت عليه من أحكام[2] .

ومنها الاستعارة، وهي أن يكون للّفظ أصلٌ في الوضع اللغوي معروفٌ تدلُّ الشواهد على أنه اختُصَّ به حين وُضع، ثم يستعمل في غير ذلك الأصل، وينقل إليه نقلاً، فيكون هناك كالعاريّة[3]. فقوله (أنزلناها) استعارة مكنية، وهي ما حذف فيها المشبه به ورمز إليه بشيء من لوازمه . فالإنزال في الأصل: نقل الشيء من أعلى إلى أسفل، وهو مستعمل في الأعيان، واستعماله في المعاني؛ لتقرير نزول السورة من عند الله تعالى .

---

(١) في ظلال القرآن ، سيد قطب، مرجع سابق، ٤/٢٥٨٦ .

(٢) ينظر تفسير أبي السعود ، محمد بن محمد العمادي، دار إحياء التراث العربي، ٦/١٥٥ .

(٣) أسرار البلاغة، عبد القاهر الجرجاني، شرح وتعليق محمد عبد المنعم خفاجي، مكتبة القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م، ١/ ١٠ .

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

ومنها المجاز المرسل في قوله: (وفرضناها) وهذا ضرب من التوسع في أساليب اللغة، وفن من فنون الإيجاز في القول، فقد أوقع الفرضية على السورة نفسها، تأكيداً لفرضية أحكام السورة، إذ المعنى: وفرضنا ما فيها من أحكام. وتقديم الجار والمجرور في قوله: (فيها) على المفعول (آيات) تعجيل ببيان محل الآيات، وأنها في السورة لا في غيرها[1].

ومنها الوصل بين الجمل، بعطف جملة على أخرى بالواو، فالجملة الأولى (أنزلناها) والثانية (فرضناها) والثالثة (أنزلنا) وقد وجب الوصل هنا؛ لاشتراك هذه الجمل في الخبرية مع وجود التناسب المعنوي بينها[2].

والوصل يقابله الفصل، وذلك في جملة (لعلكم تذكرون) فهي مفصولة عن الجمل قبلها، وهذه الجملة قد جاءت رداً على سؤال أثارته الجمل السابقة، كأنه قيل: لماذا الانزال والفرضية وإنزال الآيات البينات؟ فيكون الرد (لعلكم تذكرون) وهو ما يسمى عند البلاغيين بشبه كمال الاتصال، وهو أن تكون الجملة الثانية جواباً عن سؤال ناشئ عن الجملة الأولى[3].

بعد هذا الإعلان المعجز في بنائه ومعانيه، يشرع سبحانه وتعالى في بيان التشريعات والأحكام والآداب.

أولاً: حد الزنا وعقوبة مرتكبيه.

بدأ سبحانه وتعالى بحد الزنا، فهو أكبر أبواب الجرائم والأمراض الاجتماعية المدمرة، واضعاً العقوبة التربوية الحاسمة، قال تعالى: ﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ

---

(1) ينظر الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، الزمخشري، مرجع سابق، ٢٠/١.

(2) جواهر البلاغة، أحمد الهاشمي، مرجع سابق، ص١٦٧.

(3) المرجع السابق، ص١٧٠.

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

ٱلْمُؤْمِنِينَ ۞ ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾[1].

وأول ما يلاحظ من الأساليب البلاغية المعبرة، التقديم والتأخير. والتقديم من قدم أي وضع أمام غيره، والتأخير نقيض ذلك[2] وهو أحد أسباب البلاغة، له في القلوب أحسن موقع وأعذب مذاق[3] إذ الألفاظ في اللغة قوالب للمعاني، وقد يعرض لبعض الألفاظ من المزايا ما يدعو لتقديمها حسب الغرض الذي يراد. وبناء على ذلك فإن التقديم والتأخير في أجزاء الكلام لا يأتي اعتباطاً، إنما يكون لغرض بلاغي مقصود، كالذي أشار إليه الزمخشري وهو يبحث سر تقديم الزانية على الزاني أولاً، وتقديم الزاني على الزانية ثانياً، فيتساءل كعادته ويجيب، في مثل قوله: "فإن قلت: كيف قدمت الزانية على الزاني أولاً، ثم قدم عليها ثانياً؟ قلت: سيقت تلك الآية لعقوبتهما على ما جنيا، والمرأة هي المادة التي منها نشأت الجناية؛ لأنها لو لم تطمع الرجل، ولم تومض له، ولم تمكنه، لم يطمع ولم يتمكن، فلما كانت أصلاً، وأولاً في ذلك، بدء بذكرها. وأما الثانية فمسوقة لذكر النكاح، والرجل أصل فيه؛ لأنه هو الراغب والخاطب، ومنه يبدأ الطلب"[4].

ومن الأساليب البلاغية الواردة في الآية: المجاز المرسل في قوله: (في دين الله) حيث أطلق الكل، باعتبار أن إقامة هذه العقوبة إقامة للدين كله، وفي هذا دليل على أهمية الحد، والحث على تطبيقه والتحذير من تركه.

---

(١) سورة النور، الآيتان (٢- ٣).

(٢ ينظر ابن منظور، "لسان العرب، دار المعارف، مادة قدم وأخر".

(٣ الزركشي البرهان في علوم القرآن- طبعة عيسى الحلبي ٢٢٣/٣.

(٤) الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، الزمخشري، مرجع سابق٣ /٦١-٦٢.

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

وحتى لا تمتلك الرأفة قلوب المخاطبين بإقامة الحد، جاء التعبير بلفظ (تأخذكم) استعارة تصريحية لشدة التأثير، إذ الأخذ حقيقته الاستيلاء[1]. والرأفة هنا قد جسدت على أنها تستطيع الأخذ والتملك عنوة، وذلك على سبيل الاستعارة المكنية، وهي التي يحذف منها المشبه به ويُرمز إليه بشيء من لوازمه، كقوله تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا ﴾[2] حيث شبه الشيب بالنار في البياض، وحذف المشبه به وهو "النار" ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو "الاشتعال".

وتسمية الحد (عذاباً) استعارة تصريحية أيضاً، وهي ما حذف منها المشبه وصُرح فيها بلفظ المشبه به، وقد جاءت هنا متمكنة في مكانها، مؤثرة في النفس، دالة على التهويل والتخويف من هذه العقوبة.

ومما هو ملاحظ أن الجمل في الآية جاءت موصولة اتصالاً كاملاً؛ لاتحادها في الإنشائية والتناسب في المعنى.

ثانياً: تحذير المؤمنين من نكاح الزواني:

بعد أن بين الله تعالى حد الزنا وعقوبة فاعليه، بياناً بلاغياً معجزاً، حذر المؤمنين الصالحين وحرم عليهم نكاح الزواني، فقال تعالى: ﴿ الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾[3]. حيث جاءت الآية واجبة الفصل لكمال انقطاعها، وكمال الانقطاع من المواضع التي توجب الفصل، ذلك لما بين الجملتين من تباين تام: لاختلافهما خبراً وإنشاءً، أو لانعدام التناسب المعنوي بينهما. وهذا المصطلح البلاغي يراد به ترك واو العطف بين الجمل.

---

(١) ينظر التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور: مطبعة عيسى الحلبي، الطبعة الأولى ١٩٦٥م: ١٨/١٥٠.

(٢) سورة مريم الآية(٤).

(٣) سورة النور، الآية (٣).

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

ومن الأسرار والدلالات البلاغية في الآية، تصديرها بالجملة الاسمية، فهي تفيد الدوام والثبوت على تلك الحالة، أي حالة تحريم نكاح الزواني على مر الدهور والأزمان . ومنها التقديم والتأخير المتمثل في تقديم المسند إليه (الزاني) على الخبر الفعلي (لا ينكح) وهذا يفيد تقوية الحكم وتأكيده . يقول شيخ البلاغيين عبد القاهر: "إنه لا يؤتى بالاسم معرى من العوامل إلا لحديث قد نوي إسناده إليه، وإذا كان كذلك فإذا قلت: (عبد الله) فقد أشعرت قلبه بذلك أنك قد أردت الحديث عنه، فإذا جئت بالحديث فقلت مثلاً: (قام) أو قلت: (خرج) أو قلت: (قدم) فقد علم ما جئت به، وقد وطأت له، وقدمت الإعلام فيه، فدخل على القلب دخول المأنوس به، وقبله قبول المتهيء له المطمئن إليه، وذلك لا محالة أشد لثبوته، وأنفى للشبهة وأمنع للشك، وأدخل في التحقيق"[1] .

ومن الأساليب البلاغية الواردة في الآية أيضاً أسلوب القصر، وهو تخصيص شيء بشيء بطريق مخصوص[2]. وهنا قد قصر نكاح الزاني على الزانية أو المشركة، وقصر نكاح الزانية على الزاني أو المشرك، فالقصر في الجملة الأولى، مفاده أن الزاني لا يرغب إلا في نكاح الزواني، وقد يرغب في نكاحهن غير الزناة، أما القصر في الجملة الثانية فيفيد أن الزانية غير مرغوب فيها إلا للزنا[3] . والمقصود هنا التنفير من الزنا، وذلك بوضعه مع الإشراك في مرتبة واحدة[4] .

ثالثاً: عقوبة قذف المحصنات الغافلات:

بعد أن حذر سبحانه من الزنا، وبين عقوبة من وقع فيه، أراد أن يضع ضوابط صارمة لحماية المجتمع من الاتهامات الباطلة التي تقدح في الشرف والعفاف، وقد شدد

---

(١) دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، تعليق السيد محمد رشيد رضا، دار المعرفة، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ-١٩٩٤م، ص٣٩ .

(٢) جواهر البلاغة، أحمد الهاشمي، مرجع سابق، ص١٥٢ .

(٣) ينظر التفسير الكبير، فخر الدين الرازي، دار الفكر، بيروت ٢٢٦/٦ .

(٤) ينظر إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، ابو السعود، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٥٦/٦ .

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

في عقوبة هذه الجريمة؛ لما يترتب عليها من أضرار اجتماعية بالغة. قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[1].

وأول ما يظهر من أساليب البلاغة في هذه الآية، الاستعارة التصريحية، في قوله: (يرمون المحصنات) فقد استعير الرمي للسب بجامع الإيذاء في كل، ثم اشتق منه (يرمي) على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية، وهي التي يكون اللفظ المستعار فيها أو اللفظ الذي جرت فيه الاستعارة اسماً مشتقاً أو فعلاً. ودلالة الاستعارة هنا للمبالغة في شدة تأثير القذف على المحصنات[2].

ومن الأساليب كذلك، الوصل بين جملة (ولا تقبلوا) وما قبلها، للاشتراك في الإنشائية ووجود المناسبة المعنوية. وقد جيء بجملة (وأولئك هم الفاسقون) جملة اسمية خبرية للحكم عليهم بالفسق، وأن هذا الفسق دائم ثابت. وفي خاتمة الآية يجئ إيجاز الحذف، ممثلاً في قوله (وأصلحوا) وهو باب دقيق المسلك لطيف المأخذ كما يقول الإمام عبد القاهر الجرجاني[3].

رابعاً: قضية اللعان:

بعد أن بين الله تعالى حكم قذف المحصنات الغافلات بصفة عامة، جاء قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝ وَٱلْخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝ وَيَدْرَؤُا۟ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ

---

(١) سورة النور، الآية (٥).

(٢) ينظر إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، أبو السعود: مرجع سابق: ١٥٧/٦.

(٣) دلائل الإعجاز: عبد القاهر الجرجاني: مرجع سابق: ص١٤٦.

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾[1] لبيان حكم الذين يقذفون زوجاتهم، وقد جاءت الآيات موصولة بما قبلها؛ للمناسبة ووحدة الموضوع.

ومن الأساليب البلاغية في الآية لفظ (أزواجهم) وذلك تذكيراً بحق الزوجية، والبعد عن الاتهامات الباطلة؛ لأن الضرر إذا وقع سيقع عليهم جميعاً. ومنها أيضاً أسلوب القصر في قوله تعالى: (ولم يكن لهم شهداء إلا أنفسهم) للدلالة على عدم وجود شهود غيرهم يؤيدون ما قالوا. ومنها تقديم المسند (لهم) على المسند إليه (شهداء) لبيان أن المطلوب شهداء لهم لا عليهم.

وفي قوله: (إنه لمن الصادقين) تأكيد بـ (إن) و (اللام) على صدق دعواه، فالأمر جد خطير، وما يترتب عليه أخطر. وقوله: (يدرأ عنها العذاب) فيه استعارة تصريحية لدفع الحد عن الزوجة وإبطاله، وإطلاق العذاب على حد الزنا من قبيل التهويل.

ومن الأساليب البلاغية كذلك، أسلوب الالتفات الوارد في ختام آيات اللعان، وهو قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴾[2] فهذا التفات من الغيبة إلى الخطاب، التفات إلى خطاب الرامين والمرميات بطريق التغليب؛ لتوفية مقام الامتنان حقه، وحذف جواب لولا للتهويل، والإشعار بضيق العبارة عن حصره، كأنه قيل: ولولا تفضله تعالى عليكم ورحمته، وأنه تعالى مبالغ في قبول التوبة، حكيم في جميع أفعاله وأحكامه التي جملتها ما شرع لكم من حكم اللعان، لكان ما كان مما لا يحيط به نطاق البيان[3].

---

(١) سورة النور، الآيات (٦-٩).

(٢) سورة النور، الآية (١٠).

(٣) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، أبو السعود، مرجع سابق ١٥٩/٦.

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

ولما كان الستر والحفاظ على الأبناء من الحكم البليغة في تشريع اللعان بين الزوجين عند القذف، جاءت الحكمة تالية للتوبة، مع أن التوبة يناسبها ذكر الرحمة، وهذا سر من أسرار الفواصل القرآنية التي تأتي مناسبة لمعاني الآية[1].

خامساً: حديث الإفك.

في الآيات السابقة بين سبحانه وتعالى حكم القذف، ثم أتبعه بأكبر جريمة قذف وقعت في تاريخ الإسلام، ألا وهو حديث الإفك، الذي اتهمت فيه أم المؤمنين السيدة عائشة (رضي الله عنها) قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[2].

درس يعاتب فيه المولى عز وجل أصحاب الإفك، ويثبت فيه براءة أم المؤمنين (رضي الله عنها) وفيه تسلية لرسوله (ﷺ) قال تعالى: ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ فنفى عنهم شر ذلك الإفك، وأثبت لهم خيره.

وقد جاء هذا الخطاب بأسلوب بلاغي رصين، يتمثل في أسلوب القصر الوارد عن طريق العطف بـ (بل) قصر صفة على موصوف. ونفي الشر وتكرار الجار والمجرور دال على ذلك، وأن هذه الصفة لهم لا لغيرهم. والكلام هنا لا يخلو من تحسين اللفظ، وتقوية المعنى المستفاد من طباق الإيجاب بين لفظي (شر وخير).

أما قوله تعالى: (ما اكتسب من الإثم) أي يلقى جزاءه من جنس ما اكتسبه، فالجزاء من جنس العمل، وهذا من أسرار حذف المضاف، إذ التقدير: جزاء ما اكتسب. وقد جاءت جملة (والذي تولى كبره) موصولة بما قبلها لاتحادهما في الخبرية والمناسبة في المعنى، وذلك من فنون علم المعاني.

---

(١) البرهان في علوم القرآن: الزركشي: الطبعة الأولى ١٤١٨ هـ-١٩٨٨م: دار الفكر للطباعة والنشر: ٧٨/١.

(٢) سورة النور: الآية (١١).

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

بعد هذا العتاب والزجر لأصحاب الإفك، يتوجه المولى عز وجل لخطاب المؤمنين، بهذا الأسلوب البلاغي الرصين، أسلوب الالتفات: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾[1] الذي يوضح الزمخشري أسباب بلاغته، إذ يقول: "فإن قلت: ولم عدل عن الخطاب إلى الغيبة، وعن الضمير إلى الظاهر؟ قلت: ليبالغ في التوبيخ بطريقة الالتفات، وليصرح بلفظ الإيمان، دلالة على أن الاشتراك فيه مقتض أن لا يصدّق مؤمن على أخيه ولا مؤمنة على أختها قول عائب ولا طاعن. وفيه تنبيه على أن حق المؤمن إذا سمع قالة في أخيه أن يبني الأمر فيها على الظنّ لا على الشك. وأن يقول بملء فيه بناء على ظنّه بالمؤمن الخير: هذا إفك مبين"[2].

ومن أساليب البلاغة في الآية، التقديم، تقديم الظرف الذي يوضح سر دلالته جار الله، إذ يقول: يقول "فإن قلت: فأيّ فائدة في تقديم الظرف حتى أوقع فاصلاً؟ قلت: الفائدة فيه: بيان أنه كان الواجب عليهم أن يتفادوا أوّل ما سمعوا بالإفك عن التكلم به، فلما كان ذكر الوقت أهمّ وجب التقديم"[3].

أما قوله: (بأنفسهم) ففيه استعارة تصريحية دالة على أن المؤمنين نفس واحدة، وأن أم المؤمنين كأنفسهم. والتعبير باسم الإشارة (أولئك) في قوله تعالى: ﴿فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾[4] لتوضح بعد منزلتهم، ويؤكد ذلك بالضمير (هم الكاذبون) ليبين كمالهم في الكذب. وكلمة (أفضتم) في قوله تعالى:﴿لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[5] استعارة، فقد استعار الإفاضة لنشر الحديث وإشاعته،

---

(1) سورة النور: الآية (١٢).

(2) الكشاف: الزمخشري: مرجع سابق ٣/ ٦٥.

(3) المرجع السابق: ٣/٦٦.

(4) سورة النور: الآية (١٣)

(5) سورة النور: الآية (١٤).

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

واشتق منها أفضتم، على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية، وهي التي يكون اللفظ المستعار فيها أو اللفظ الذي جرت فيه الاستعارة اسماً مشتقاً أو فعلاً[1] . وقوله تعالى: ﴿وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾[2] فيه طباق بديع بين (هين) و(عظيم) وهذا من الجمال اللفظي والمعنوي في القرآن الكريم، لما له من تأثير بمواجهة الضد بضده . والتهييج في قوله تعالى: ﴿يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[3] لغرض الاتعاظ، وفيه تذكير بما يوجب ترك العود، وهو اتصافهم بالإيمان الصادّ عن كلّ مقبح[4] .

وقد جاء قوله تعالى: ﴿وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[5] تذييل لتأكيد مضمون ما قبله. وإظهار الاسم الجليل تفخيم لشأن ذلك البيان، وتأكيد لاستقلال الاعتراض التذييلي، وإشعار بعلية الألوهية للعلم والحكمة[6].

ومن أساليب البلاغة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَـٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[7] التجديد والاستمرار الدال عليه لفظ (يحبون) وأن إشاعة الفاحشة هي عادتهم ودينهم . وفي قوله (تشيع الفاحشة) إيجاز حذف، إذ المعنى: يشيع خبرها، ودلالة الحذف هنا تفظيع لتشر أخبار الفاحشة باعتبارها هي الفاحشة نفسها . ومن الأساليب التقديم في قوله تعالى (لهم عذاب) دلالة على أن العذاب مخصص لهم، وهو عذاب شديد أليم، بدليل تنكير كلمة (عذاب) .

---

(1) جواهر البلاغة، أحمد الهاشمي، مرجع سابق، ص ٢٥٠ .

(2) سورة النور، الآية (١٥) .

(3) سورة النور، الآية (١٧) .

(4) ينظر الكشاف، الزمخشري، مرجع سابق، ٣/٦٦ .

(5) سورة النور، الآية (١٨) .

(6) تفسير أبي السعود، مرجع سابق ٥/٣٤ .

(7) سورة النور، الآية (١٩) .

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

وقوله تعالى: (والله يعلم وأنتم لا تعلمون) تذييل للجملة، وفيه تهديد بطريق القصر، أي قصر العلم على الله عز وجل، وقصر عدمه على المخاطبين . والمعنى: أنه قد علم محبة من أحب الإشاعة، وهو معاقبه عليها[1] .

ويلاحظ أن في خاتمة حديث الإفك جاء قوله تعالى: ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾[2] تذييل لما مر من الأحكام العظيمة المشتملة على التفضل من الله والرحمة منه، ولغرض التهويل وتفخيم مضمون الشرط الذي كان سبباً في امتناع حصوله، حذف جواب لولا، والتقدير: لولا فضل الله عليكم ورحمته بأن دفع عنكم أذى بعضكم لبعض بما شرع من الزواجر لتكالب بعضكم على بعض[3] .

وهناك ملاحظة لا بد من ذكرها، وهي التغاير بين فاصلتي آية النعان وما نحن بصدده: فآية اللعان جاءت فاصلتها: (وأن الله تواب حكيم) أما فاصلة هذه الآية فهي: (وأن الله رءوف رحيم) وهذا ما يؤذن بأن الذنب في هذا أعظم، وكأنه لا يرتفع إلا بمحض رأفته تعالى، وهو أعظم من أن يرتفع بالتوبة كما جاء في خاتمة قضية اللعان[4] . وفي تكرار المنة بترك المعاجلة مع حذف جواب لولا مبالغة عظيمة[5] .

بعد أن بين الله تعالى حادثة الإفك، نبه المؤمنين وحذرهم من اتباع خطوات الشيطان، بأسلوب النداء، فقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۚ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾[6] . فقوله: (لا تتبعوا خطوات الشيطان) كناية

---

(1) ينظر الكشاف، الزمخشري: مرجع سابق،٣/٦٧ .

(٢) سورة النور الآية (٢٠) .

(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور: مرجع سابق،٩/٤٤٢ .

(٤) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الآلوسي: دار الفكر ١٣/٣٨٠ .

(٥) الكشاف: الزمخشري، مرجع سابق: ٣/٦٧ .

(٦) سورة النور(الآية (٢١) .

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

أُريد بها لازم معناها، وهو النهي عن متابعة الشيطان، ولزيادة التقرير والمبالغة في التنفير والتحذير وضع الظاهر موضع الضمير في قوله: (ومن يتبع خطوات الشيطان) حيث لم يقل: ومن يتبعها، أو ومن يتبع خطواته [1]. والجملة فيها إيجاز بحذف جواب الشرط دلالة على التعظيم والتهويل، والمعنى أن من يتبع خطوات الشيطان بفعل المنكرات وغيرها سيقع في أمر عظيم لا يُعرف مداه. ولما كان المنكر شامل لكل ما أنكره الشرع، وكانت الفحشاء نوع خاص منه؛ جاءت الجملة على سبيل عطف العام على الخاص، للدلالة على أن الشيطان يغري بفعل كل ما يخالف الشرع.

وقد جاء التذييل الاعتراضي في خاتمة الآية (والله سميع عليم) للتأكيد، يقول أبو السعود: "وإظهار الاسم الجليل للإيذان باستدعاء الألوهية للسمع والعلم مع ما فيه من تأكيد استقلال الاعتراض التذييلي" [2].

وفي أعقاب حديث الإفك توجيه تربوي اجتماعي، يتضمنه قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [3] وهذا علاج ما أفرزته تلك الحادثة من غضب وغيظ، واضطراب في المقاييس، وقلق في النفوس. "فإذا نفس محمد (ﷺ) مطمئنة هادئة، وإذا نفس عائشة رضي الله عنها قريرة راضية، وإذا نفس أبي بكر رضي الله عنه سمحة صافية. وإذا نفس صفوان بن المعطل رضي الله عنه قانعة بشهادة الله وتبرئته، وإذا نفوس المسلمين آيبة تائبة، وقد تكشف لها ما كانت تخبط فيه من التيه، فثابت إلى ربها شاكرة فضله ورحمته وهدايته" [4]. وفي هذا توضيح وبيان لما

---

(١) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم: أبو السعود، مرجع سابق: ٣٥/٥.

(٢) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم: أبو السعود، مرجع سابق: ٣٥/٥.

(٣) سورة النور: الآية (٢٢).

(٤) في ظلال القرآن: سيد قطب، مرجع سابق: ٢٨٢/٥.

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

يجب أن يفعله المؤمنون، وترغيب عظيم في العفو، ووعد كريم بمقابلة ذلك بعفو من الله . وقد جمعت الآية بين العفو والصفح للتأكيد على العفو وترك العقاب .

وقد كان للأساليب البلاغية دور كبير في توضيح تلك الصور، فقد جاءت الجمل في هذه الآية متحدة في الإنشائية، متناسبة في المعنى، ذلك ما أدى لوصلها بالواو، وهو ما يسمى عند البلاغيين بشبه كمال الاتصال[1]. وقد أدى أسلوب الالتفات في قوله تعالى: (ألا تحبون أن يغفر الله لكم) دوره كاملاً في إلهاب وتهييج المخاطبين لقبول العفو والصفح[2]. جاء التذييل في قوله تعالى: (والله غفور رحيم) مؤكداً له.

ولخطورة الإفك وما له من أضرار دينية ومجتمعية، جاءت الآيات محذرة منه، مبينة عواقبه الوخيمة، بأساليب وطرق بلاغية شتى: فقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[3] بيان لمصير القاذفين، الذين لا يزالون يمارسون هذه الجريمة البشعة في المحصنات العفيفات الغافلات. ووصفهن بهذه الصفات دلالة على كمال نزاهتهن، وتأكيداً لأصالة هاتين الصفتين فيهن، إضافة إلى صفة الإيمان الجامعة لكل صفات الشرف والفضيلة[4] .

والملاحظة أن هذه الجملة لم تعطف على ما قبلها؛ لوقوع الفصل بينها وبين التي تناسبها، وهي قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾[5][6] . وللدلالة على ثبوت العذاب واستمراره، جاء التعبير بالجملة الاسمية (ولهم عذاب عظيم) إذ الجملة

---

(1) سبق توضيحه .

(2) الالتفات من الغيبة إلى الخطاب .

(3) سورة النور، الآيتان (٢٣-٢٤) .

(4) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، أبو السعود، مرجع سابق ٣٦/٥ .

(5) التحرير والتنوير، ابن عاشور، مرجع سابق ٤٦١/٩ .

(6) سورة النور، الآية (٢١) .

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

الاسمية تفيد الثبوت، كما الجملة الفعلية تفيد التجدد والحدوث . وقد جاء لفظ (عذاب) نكرة غير مألوف ولا معروف: تهويلاً لأمره وتعظيماً لشأنه، أي هو عذاب مخصص لهم لا لغيرهم، وهذا ما دل عليه أسلوب القصر .

أما قوله تعالى: (يوم تشهد عليهم ألسنتهم) فقد تقدم لفظ (عليهم) للمسارعة إلى بيان أن الشهادة ضارة لهم مع ما فيه من التشويق إلى المؤخر[1] . ولما كان اللسان هو العضو المرتكب لجريمة القذف قُدم على بقية الأعضاء .

وبما أن الآيات تتحدث عن الذين لم يتوبوا ويقلعوا عن جريمة القذف، فقد جاء الجمع بين صيغتي الماضي والمستقبل، في قوله (بما كانوا يعملون) للدلالة على استمرارهم عليها في الدنيا كما يقول أبو السعود[2] .

وقوله تعالى: ﴿ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴾[3] أي يوم إذ تشهد جوارحهم بأعمالهم القبيحة يعطيهم الله تعالى جزاءهم. وقد فصلت الآية عن سابقتها لشبه كمال الاتصال، وهو أن تكون الجملة الثانية جواباً عن سؤال ناشئ عن الجملة الأولى، فكأن الآية السابقة قد أثارت سؤالاً هكذا: يوم تشهد عليهم ألسنتهم ماذا يحدث لهم؟ فجاء الرد (يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق ويعلمون أن الله هو الحق المبين) والجملتان (يوفيهم) و(يعلمون) موصولتان بالواو لتناسبهما واتحادهما في الخبرية[4] . ولم تخل الآية من محسن لفظي، كالجناس الناقص بين لفظي (يعملون ويعلمون) وهذا من بواعث التفكر والتأمل .

---

(1) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، أبو السعود، مرجع سابق، ٣٨/٥ .

(2) المرجع السابق: ٣٨/٥ .

(3) سورة النور: الآية (٢٥) .

(4) يجب الوصل إذا اتفقت الجملتان خبراً وإنشاء، وكانت بينهما مناسبة في المعنى، ولم يكن هناك مانع من موانع الوصل

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

وقد جاء قوله تعالى: ﴿ الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾[1] كلاماً مستأنفاً مسوقاً على قاعدة السنة الإلهية الجارية فيما بين الخلق، على موجب أن لله تعالى ملكاً يسوق الأهل إلى الأهل، أي الخبيثات من النساء الخبيثين من الرجال، أي مختصات بهم لا يكدن يتجاوزنهم إلى غيرهم، على أن اللام للاختصاص كما يقول أهل العلم[2].

ومن الأساليب البلاغية في الآية: تقديم (الخبيثات) وذلك لما يخص المؤخر من أحكام في آخر الآية وهي قوله تعالى: (أولئك مبرءون مما يقولون لهم مغفرة ورزق كريم). وقوله: (أولئك) بالإشارة إلى البعيد، تنبيهاً على علو مرتبتهم وفضلهم. و مجيء قوله (مبرءون) على صيغة اسم المفعول دلالة على دوام البراءة لهم. وتقديم الجار والمجرور في قوله: (لهم مغفرة) للتشويق، ولبيان أن ذلك خاص بهم. وقد زينت الآية بمقابلة لطيفة، وهي قوله تعالى: (الخبيثات للخبيثين) و(الطيبات للطيبين).

المبحث الثاني

دور الأساليب البلاغية
في بيان طرائق الوقاية من الفواحش

الإسلام لا يعتمد على العقوبة وحدها في إنشاء مجتمعه النظيف، إنما يعتمد قبل كل شيء على الوقاية. ولا يحارب الدوافع الفطرية، ولكن ينظمها، ويضمن لها الجو النظيف الخالي من المثيرات المصطنعة، وذلك بتضييق فرص الغواية، وإبعاد عوامل الفتنة، وإغلاق الطريق أمام أسباب التهييج والإثارة[3].

---

(1) سورة النور، الآية (٢٦).

(2) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، أبو السعود، مرجع سابق، ٣٩/٥.

(3) في ظلال القرآن، سيد قطب، مرجع سابق، ٢٥٠٧/٤.

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

تناولت آيات سورة النور في أسلوب بلاغي بديع هذه الوسائل الواقية من الجريمة، بتجنيب النفوس أسباب الإغراء والغواية، فبدأت بآداب البيوت والاستئذان من أهلها، والأمر بغض البصر والنهي عن التبرج، والحض على إنكاح الأيامى، والتحذير من دفع الفتيات إلى البغاء، وكل ذلك أسباب وقائية لضمان الطهر والتعفف في عالم الضمير والشعور، ودفع المؤثرات التي تهيج الميول الحيوانية، وترهق أعصاب المتحرجين المتطهرين، وهم يقاومون عوامل الإغراء والغواية[1] .

أولاً: آداب الاستئذان على البيوت .

جعل الله البيوت سكناً يفيء إليها الناس فتسكن أرواحهم، وتطمئن نفوسهم، ويأمنون على عوراتهم وحرماتهم، ويلقون أعباء الحذر والحرص المرهقة للأعصاب . والبيوت لا تكون كذلك إلا حين تكون حرماً آمناً لا يستبيحه أحد إلا بعلم أهله وإذنهم، وفي الوقت الذي يريدون، وعلى الحالة التي يحبون أن يلاقوا عليها الناس .ذلك أن استباحة حرمة البيت من الداخلين دون استئذان، يجعل أعينهم تقع على عورات، وتلتقي بمفاتن تثير الشهوات وتهيّئ الفرصة للغواية الناشئة من اللقاءات العابرة، والنظرات الطائرة، التي قد تتكرر فتتحول إلى نظرات قاصدة ، تحركها الميول التي أيقظتها اللقاءات الأولى على غير قصد ولا انتظار، وتحولها إلى علاقات آثمة بعد بضع خطوات أو إلى شهوات محرومة تنشأ عنها العقد النفسية والانحرافات[2] .

ولقد كانوا في الجاهلية يهجمون هجوماً، فيدخل الزائر البيت ثم يقول: لقد دخلت! وكان يمكن أن يكون صاحب الدار مع أهله في الحالة التي لا يجوز أن يراهما عليها أحد، وكان يمكن أن تكون المرأة عارية أو مكشوفة العورة هي أو الرجل . وكان ذلك يؤذي ويجرح، ويحرم البيوت أمنها وسكينتها، كما يعرض النفوس من هنا ومن هناك لفتنة حين تقع العين على ما يثير[3] .

---

(1) المرجع السابق، ٤/٢٤٨٦ .

(2) في ظلال القرآن: سيد قطب، مرجع سابق: ٤/٢٤٨٦ .

(3) المرجع السابق

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

من هنا جعل الله تعالى للبيوت حرمة لا يجوز المساس بها، فلا يفاجأ الناس في بيوتهم بدخول الغرباء عليهم إلا بعد استئذانهم وسماحهم بالدخول؛ خيفة أن تطلع الأعين على خفايا البيوت، وعلى عورات أهلها وهم غافلون، فقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَاۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴾ [1] . جاءت هذه الآية استئناف لبيان أحكام التزاور، وتعليم آداب الاستئذان، وتحديد ما يحصل المقصود منه؛ كيلا يكون الناس مختلفين في كيفيته على تفاوت اختلاف مداركهم في المقصود منه والمفيد[2] .

في الآية كثير من الأساليب البلاغية: منها أسلوب النداء الذي بدأت به؛ للانتباه إلى هذه الوسيلة التربوية الناجعة؛ ألا وهي الاستئذان؛ الذي به تصان الحرمات، وتطهر المجتمعات، وهو خلاف الاستيحاش، وهو من باب الكناية اللطيفة كما يقول الزمخشري[3] .

ومنها عطف الأمر بالسلام على الاستئناس في الآية الكريمة، وجعل كليهما غاية للنهي عن دخول البيوت؛ تنبيهاً على وجوب الإتيان بهما؛ لأن النهي لا يرتفع إلا عند حصولهما[4] . ولعلو مرتبة الاستئذان؛ أشير إليه في الآية بالبعيد (ذلكم خير لكم) .

أما قوله تعالى: ﴿ فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فِيهَآ أَحَدٗا فَلَا تَدۡخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤۡذَنَ لَكُمۡۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرۡجِعُواْ فَٱرۡجِعُواْ هُوَ أَزۡكَىٰ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ﴾[5] بناء كلمة (يؤذن) للمجهول، فيه تنبيه على الأهم، وهو وقوع الإذن ممن يملكه. وربط الجواب بالشرط في قوله: (فارجعوا) تعجيل بالرجوع، استجابة لرغبة أهل البيت. وعلة الرجوع الفوري، تأتي من قوله تعالى: (هو أزكى لكم). وللحث على التزام أوامر الله، والتحذير من مخالفة ذلك، جاء التذييل بقوله: (والله بما تعملون عليم) .

---

(1) سورة النور الآية (٢٧) .

(2) التحرير والتنوير، ابن عاشور، مرجع سابق٩/٤٦٣ .

(3) الكشاف، الزمخشري، مرجع سابق، ٣/٦٩

(4) التحرير والتنوير، ابن عاشور، مرجع سابق٩/٤٦٣ .

(5) سورة النور الآية (٢٨) .

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

أما إذا كانت البيوت غير مسكونة، أو كان دخولها لمنفعة، فليس ثمة جناح أو حرج من دخولها، وهذا ما أفاده تقديم الخبر (عليكم) وتنكير (جناح) في قوله تعالى: ﴿ لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴾[1] . وقوله تعالى: (والله يعلم ما تبدون وما تكتمون) تحذير من تجاوز ما أشارت إليه الآية من القيود، وهي كون البيوت غير مسكونة، وكون الداخل محتاجاً إلى دخولها، بل له أن يدخلها بقصد التجسس على ساكنيها أو بقصد أذاهم أو سرقة متاعهم[2]. وتقديم المسند إليه على الخبر (والله يعلم) مفاده تخصيص ذلك العلم على الله دون غيره، ويلاحظ من المحسنات البديعية طباق الإيجاب بين قوله (تبدون وتكتمون).

ثانياً: غض البصر والتزام الحجاب .

بعد أن بين تعالى في الآيات السابقة أهم وسائل حماية المجتمع، وهي الاستئذان، أعقب ذلك ببيان آداب المجالسة بعد الدخول، ومنها: أن لا يكون الداخل إلى البيت محدقاً بصره إلى امرأة فيه، بل إذا جالسته المرأة غض بصره واقتصر على الكلام، ولا ينظر إليها نظراً يصعب صرفه، قال تعالى: ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾[3] .

وتلوين الخطاب وتوجيهه إلى رسول الله ﷺ (قل للمؤمنين) وتفويض ما فيه من الأوامر والنواهي إلى رأيه (عليه الصلاة والسلام) لأن هذه الأوامر تكاليف متعلقة بأمور جزئية كثيرة الوقوع، حقيقة بأن يكون الآمر بها والمتصدي لتدبيرها حافظاً ومهيمناً عليهم[4] .

---

(1) سورة النور: الآية (٢٩) .

(2) التحرير والتنوير، ابن عاشور، مرجع سابق٩/٤٦٧ .

(3) سورة النور: الآية (٣٠) .

(4) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، أبو السعود، مرجع سابق٥/٤١

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

ولما كان الغض التام لا يمكن، جيء في الآية بحرف (من) الدال على التبعيض، والتقييد بـ (من) التبعيضية دون الحفظ الكامل؛ لما في أمر النظر من السعة[1].

ومن أساليب البلاغة في الآية، تقديم غض الأبصار على حفظ الفروج؛ لأنّ النظر بريد الزنى وراائد الفجور، فالبلوى فيه أشدّ وأكثر، لا يكاد يقدر على الاحتراس منه[2]. وقد رُتّبت وسائل التربية في السورة ترتيباً بديعاً، يقول الزمخشري معلقاً على هذا الترتيب: "وما أحسن ما رتب هذه الأوامر، حيث أمر أولاً بما يعصم من الفتنة ويبعد عن مواقعة المعصية، وهو غض البصر، ثم بالنكاح الذي يحصن به الدين ويقع به الاستغناء بالحلال عن الحرام، ثم بالحمل على النفس الأمارة بالسوء وعزفها عن الطموح إلى الشهوة عند العجز عن النكاح إلى أن يرزق القدرة عليه"[3].

وفي هذا الترتيب تهذيب للنفس وإرشاد لها إلى طريق الخير باتباع الوسائل المانعة عن الرذيلة، فالقرآن عندما يواجه النفس البشرية بأخطائها، يرتب الآيات ترتيباً حسناً حتى تكون كل آية كأنها ممهدة للأخرى.

أما جملة (إن الله خبير بما يصنعون) تذييل فيه كناية عن جزاء ما يتضمنه الأمر من الغض والحفظ، لأن المقصد من الأمر الامتثال[4].

ومن الأساليب البلاغية كذلك الإيجاز الدال على سرعة القبول والامتثال، إذ التقدير: قل للمؤمنين غضوا يغضوا، واحفظوا يحفظوا. وفي قوله تعالى: (ذلك أزكى لهم) إشارة للبعيد، تعظيم للأمر المطلوب فعله. وتذييل الجملة بقوله: (إن الله خبير بما

---

(1) التحرير والتنوير، ابن عاشور: مرجع سابق٩/٤٦٨ . وإرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، أبو السعود: مرجع سابق٥/٤١

(2) الكشاف: الزمخشري: مرجع سابق، ٣/٧١ .

(3) الكشاف: الزمخشري: مرجع سابق،٣/٧٥ .

(4) التحرير والتنوير، ابن عاشور٩/٤٦٨ .

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

يصنعون) ترغيب في امتثال الأمر، وتحذير من مخالفته، وقد جاء الفعل (يصنعون) بصيغة المضارع دلالة على تجدد علمه سبحانه وتعالى .

في الآية السابقة خطاب للمؤمنين، يقابله خطاب المؤمنات في قوله تعالى: ﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[1] . فلما كانت المناسبة بين آية المؤمنين وآية المؤمنات بينة واضحة، جاء الوصل بالواو، فالجملتان متفقتان في الإنشائية والتناسب المعنوي . وقوله تعالى: (ولا يبدين زينتهن) مجاز مرسل علاقته الحالية، بإطلاق الحال وإرادة المحل، ودلالة المجاز هنا المبالغة في الأمر بالتستر؛ لأن هذه الزينة واقعة على موضع من الجسد لا يحل النظر إليها[2] . وتكرار النهي (ولا يبدين) "لاستثناء بعض مواد الرخصة عنه باعتبار الناظر بعد ما استثني عنه بعض مواد الضرورة باعتبار المنظور"[3] . والملاحظة أن الآية قد بدأت بـ (البعول) دون غيرهم؛ لأنهم المقصودون بالزينة .

وهناك سر بلاغي بديع، أشار إليه الألوسي في كتابه (روح المعاني) وهو استعمال لفظ (أبناء) في قوله تعالى: (أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن) واستعمال لفظ (بَنِي) في قوله تعالى: (أو بني إخوانهن أو بني أخواتهن) دون (أبناء) إذ يقول: "لأنه أوفق بالعموم،

---

(1) سورة النور، الآية (٣١) .

(2) روح المعاني، الألوسي، مرجع سابق١٢/٤٠٤ . إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، أبو السعود، مرجع سابق ٥/٤٢ .

(3) المرجع السابق ٥/٤٢

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

وأكثر استعمالاً في الجماعة الذين ينتمون إلى شخص مع عدم اتحاد صنف قرابتهم فيما بينهم ألا ترى أنك كثيراً ما تسمع بني آدم، وبني تميم، وقلما تسمع أبناء آدم وأبناء تميم، وقد يجتمع للمرأة ابن أخ شقيق، وابن أخ لأب، وابن أخ لأم، بل قد يجتمع لها أبناء أخ شقيق، أو إخوة أعيان، وبنو علات، وأبناء أخ أو إخوة لأب، وأبناء أخ أو إخوة لأم، وهؤلاء يناسبهم لفظ (بني) دون (أبناء)[1] . أما قوله: (نسائهن) فيه إضافة مجازية دالة على تأكيد الاختصاص، إذ المعنى: النساء المصاحبات لهن، المؤتمنات على أسرارهن .

والآية الكريمة ذاخرة بشتى أنواع الكنايات التي تخاطب النفس البشرية في رقة ولطف، منها قوله تعالى: (غير أولي الإربة) وهو كناية عن عدم الرغبة الجنسية، وقوله: (الذين لم يظهروا على عورات النساء) وهو كناية عن عدم تمييزهم وبلوغهم حد الشهوة .

وفي الآية طباق إيجاب، بين (يعلم ويخفين) وذلك للتأكيد . وفي بناء (يُعلم) للمجهول دلالة على الشمول والعموم . وقوله تعالى: (وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون) تغليب للذكورة، وتوجيه لخطاب المؤمنين مباشرة لهذا الأمر العظيم وهو التوبة إلى الله .

ولما كانت هناك بعض الحالات التي قد تقع في حرج مما أُمر به من غض للبصر والتزام بالحجاب الكامل، لم تغفل السورة عنها فجاء قوله تعالى: ﴿ وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ ۖ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾[2] . فهؤلاء القواعد لا حرج عليهن أن يخلعن ثيابهن الخارجية، على ألا تنكشف عوراتهن ولا يكشفن عن زينة . وخير لهن أن يبقين كاسيات بثيابهن الخارجية الفضفاضة . وهي هنا استعفافاً،

(1) روح المعاني الآلوسي، مرجع سابق ١٣/٤٠٧ .

(2) سورة النور الآية (٦٠)

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

أي طلباً للعفة وإيثاراً لها، لما بين التبرج والفتنة من صلة، وبين التحجب والعفة من صلة، وذلك حسب نظرية الإسلام في أن خير سبيل للعفة تقليل فرص الغواية، والحيلولة بين المثيرات وبين النفوس كما يقول الشهيد سيد قطب[1] .

وقد جاءت هذه الآية مخصصة لقوله تعالى: ﴿ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِيٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِيٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ﴾[2] . ومناسبة التخصيص هنا أنه وقع بعد فرض الاستئذان في الأوقات التي يضع الرجال والنساء فيها ثيابهم عن أجسادهم، فعطف الكلام إلى نوع من وضع الثياب عن لابسها وهو وضع النساء القواعد بعض ثيابهن عنهن، فاستثنى من عموم النساء النساء المتقدمات في السن[3] . وليس المراد بالثياب كلها، إنما المراد بعض الثياب، تخفيفاً لهن، وفي هذا مجاز مرسل علاقته الكلية: حيث أطلق الكل وأراد الجزء، والمجاز المرسل من الأساليب البيانية الراقية .

وفي الآية استعارة لطيفة، فالقعود وصف استعير لعدم القدرة؛ لأن القعود يمنع الوصول إلى المرغوب، ولما استعير هذا الوصف وكثر استعماله: صار هذا الوصف بهذا المعنى خاصاً بالمؤنث فلم تلحقه هاء التأنيث[4] .

وقوله تعالى: (اللاتي لا يرجون نكاحاً) للتأكيد على انعدام الشهوة عندهن . وقوله (غير متبرجات بزينة) تقييد للثياب بأن لا تكن زينة في نفسها، وألا تتكشف بوضعها العورات، ولا تظهر بوضعها زينة المرأة وإن قلت، وهذا ما دل عليه تنكير لفظ (زينة) . وقد جاء قوله تعالى: (والله سميع عليم) تذييلاً دالاً على التحذير من مخالفة الضوابط الشرعية التي أمر الله بها .

---

(1) في ظلال القرآن: سيد قطب، مرجع سابق: ٥/٢٩٥ .

(2) سورة النور، الآية (٣١) .

(3) التحرير والتنوير، ابن عاشور، مرجع سابق، ١٠/٣١ .

(4) المرجع السابق: ١٠/٣١ .

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

ثالثاً: آداب الاستئذان داخل البيوت .

الآيات السابقة بينت أحكام الاستئذان على البيوت، والآية هنا تبين أحكام الاستئذان داخل البيوت: قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسۡتَـٔۡذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَبۡلُغُواْ ٱلۡحُلُمَ مِنكُمۡ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٖۚ مِّن قَبۡلِ صَلَوٰةِ ٱلۡفَجۡرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعۡدِ صَلَوٰةِ ٱلۡعِشَآءِۚ ثَلَٰثُ عَوۡرَٰتٖ لَّكُمۡۚ لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ وَلَا عَلَيۡهِمۡ جُنَاحُۢ بَعۡدَهُنَّۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيۡكُم بَعۡضُكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴾[1] فالخدم من الرقيق والأطفال المميزون الذين لم يبلغوا الحلم يدخلون بلا استئذان، إلا في ثلاثة أوقات تنكشف فيها العورات عادة: فهم يستأذنون فيها، هذه الأوقات هي: الوقت قبل صلاة الفجر، حيث يكون الناس في ثياب النوم عادة، أو أنهم يغيرونها ويلبسون ثياب الخروج، ووقت الظهيرة عند القيلولة، حيث يخلعون ملابسهم في العادة ويرتدون ثياب النوم للراحة، وبعد صلاة العشاء، حين يخلعون ملابسهم كذلك ويرتدون ثياب الليل .

في هذه الآية استئناف انتقالي إلى غرض من أحكام المخالطة والمعاشرة، وتفصيل لآداب الاستئذان الخاصة بالعبيد والخدم والأطفال . وقد جاء ذلك بأساليب بلاغية متعددة، منها النداء (يا أيها) وذلك تنبيه لأهمية ما يأتي من أحكام، وحث على الالتزام بها . ومنها الكناية في قوله: (لم يبلغوا الحلم) وهي كناية عن عدم البلوغ . أما قوله: (ثَلَاثَ مَرَّاتٍ) أي ثلاث أوقات في اليوم والليلة، وسر التعبير فيه بـ (المرات) إيذان بأن مدار طلب الاستئذان مقارنة تلك الأوقات لمرور المستأذنين بالمخاطبين لا أنفسها، وتفصيل العدد بعد إجماله إطناب، مفاده التشويق والتقرير، بعد تأكيد الكلام بذكره مجملاً[2] .

وقوله (ثلاث عورات) استئناف يوضح سبب الأمر بالاستئذان، وهو ما يسمى عند البلاغيين بشبه كمال الاتصال، وهو من دواعي الفصل، وذلك بأن تكون الجملة

---

(1) سورة النور: الآية (٥٨) .

(2) روح المعاني: الألوسي: مرجع سابق، ١٤/٥

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

الثانية جواباً عن سؤال ناشئ عن الجملة الأولى، والمعنى أنه لما كانت هذه العورات يقل فيها الستر وتنكشف العورات أُمر بالاستئذان فيها، وسميت عورات بدلاً عن تسميتها أوقات مبالغة وتشديداً لانكشاف العورات فيها .

وفي هذه الأوقات الثلاثة لا بد أن يستأذن الخدم، وأن يستأذن الصغار المميزون الذين لم يبلغوا الحلم ، كي لا تقع أنظارهم على عورات أهليهم، وهذا أدب يغفله الكثيرون في حياتهم المنزلية، مستهينين بآثاره النفسية والعصبية والخلقية، ظانين أن الخدم لا تمتد أعينهم إلى عورات السادة، وأن الصغار قبل البلوغ لا ينتبهون لهذه المناظر، بينما يقرر علماء النفس اليوم، وبعد تقدم العلوم النفسية أن بعض المشاهد التي تقع عليها أنظار الأطفال في صغرهم هي التي تؤثر في حياتهم كلها، وقد تصيبهم بأمراض نفسية وعصبية يصعب شفاؤهم منها . والتعليم الخبير يؤدب المؤمنين بهذه الآداب، وهو يريد أن يبني أمة سليمة الأعصاب، سليمة الصدور، مهذبة المشاعر، طاهرة القلوب، نظيفة التصورات[1] .

ولما كان ترك الاستئذان في غير هذه الأوقات الثلاثة مرخص به لكثرته، جاء الاستئناف موضحاً سبب هذه الرخصة (طوافون عليكم) . وقد ختمت الآية بقوله تعالى: (كذلك يبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم) حيث قدم الجار والمجرور للعناية به، والتشويق لما سيأتي بعده، فبيان هذه الآيات من الله تعالى للناس، وهو عليم بأحوالهم، يُشرع لهم ما تقتضيه حكمته، وهذا تذييل دال على التأكيد .

ولما بين سبحانه حكم الأطفال في أنه لا جناح عليهم في ترك الاستئذان فيما عدا الأوقات الثلاثة، جاء ببيان حالهم بعد البلوغ؛ دفعاً لما عسى أن يتوهم أنهم وإن كانوا أجانب ليسوا كسائر الأجانب، بسبب اعتيادهم الدخول، أي إذا بلغ الأطفال الأحرار الأجانب (فليستأذنوا) إذا أرادوا الدخول عليكم، قال تعالى: ﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ

---

(1) في ظلال القرآن: سيد قطب، مرجع سابق: ٥/٢٩٤ .

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ . والمقصود بالتشبيه هنا بيان كيفية استئذان هؤلاء وزيادة إيضاحه، ولا يتسنى ذلك إلا بتشبيهه باستئذان المعهودين عند السامع، ولا ريب في أن بلوغهم قبل بلوغ هؤلاء مما لا يخطر ببال أحد، وإن كان الأمر كذلك في الواقع، وإنما المعهود المعروف ذكرهم قبل ذكرهم، أي فليستأذنوا استئذاناً كائناً مثل استئذان المذكورين قبلهم، بأن يستأذنوا في جميع الأوقات، ويرجعوا إن قيل لهم ارجعوا حسبما فصل فيما سلف[1] . وقوله: (كذلك يبين الله لكم اياته والله عليم حكيم) فالتكرار هنا للتأكيد والمبالغة في الأمر بالاستئذان، وإضافة الآيات إلى ضمير الجلالة تشريف لها[2] .

رابعاً: الدعوة إلى الاستعفاف بالنكاح .

أردفت أوامر العفاف بالإرشاد إلى ما يعين عليه، ويحمي المجتمع الإسلامي من الفتن والمنكرات، ويعف نفوس المؤمنين والمؤمنات، ويغض من أبصارهم، فأمر الأولياء بأن يزوجوا إماءهم؛ لأن ذلك أعف لهن وللرجال الذين يتزوجونهن . وأمر السادة بتزويج عبيدهم وإمائهم، فقال جل شأنه :﴿ وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾[3] .

الأيامى: جمع أيم، وهي المرأة التي لا زوج لها كانت ثيباً أم بكراً . والشائع إطلاق الأيم على التي كانت ذات زوج ثم خلت عنه بفراق أو موت، وأما إطلاقه على البكر التي لا زوج لها فغير شائع، فيحمل على أنه مجاز كثر استعماله[4] .

---

(1) إرشاد العقل السليم، أبو السعود، مرجع سابق، ٥/٧٤ .

(2) المرجع السابق نفسه .

(3) سورة النور الآية (٣٢) .

(4) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٩/٤٧٥ .

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

وقد اشتملت الآية على أساليب بلاغية كثيرة، منها: التبعيض في قوله (منكم) ويعني هذا أنهن من المسلمات لا غير المسلمات[1] . ومنها الاستئناف في قوله تعالى: (إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله) فهذه جملة مستأنفة، مفادها أن الفقر يجب ألا يكون سبباً للعزوف عن الزواج: فالله تعالى واسع الفضل والعطاء: وهذا ما أفادته جملة التذييل ﴿ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ المستقلة عما قبلها، المؤكدة بإظهار لفظ الجلالة في موضع الإضمار.

أما قوله تعالى: ﴿ وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ ۚ وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[2] فخطاب لغير مستطيعي النكاح، بأن يلازموا العفاف في مدة انتظارهم حتى يتيسر لهم النكاح، ولأهمية الأمر، جاءت الآية متضمنة حرفي السين والتاء الدالين على الطلب مبالغة في الفعل، أي وليعف الذين لا يجدون نكاحاً . والمعنى: أي لا يجدون قدرة النكاح، ففيه إيجاز بحذف المضاف، وفيه أيضاً استعارة تبعية، حيث شبه عدم التمكن من النكاح بعدم وجدانه[3] . والإضافة في قوله (مال الله الذي آتاكم) للتذكير بأن المال مال الله وأنتم مستخلفون فيه، فيجب الامتثال لأمره .

ولما ذكر وعد الله مَن يزوج من العبيد الفقراء بالغنى، وكان من وسائل غناه أن يذهب ليكتسب بعمله. وكان ذلك لا يستقل به العبد لأنه في خدمة سيده. جعل الله للعبيد حقاً في الاكتساب لتحرير أنفسهم من الرق، حتى يكون في ذلك غنى للعبد .

---

(1) المرجع السابق .

(2) سورة النور الآية (٣٣) .

(3) حاشية الشهاب: ٣٧٦/٦ .

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

وقد أمر الله كذلك السادة بإجابة من يبتغي الكتابة من عبيدهم؛ تحقيقاً لمقصد الشريعة من بث الحرية في الأمة، وتزكيتها واستقامة دينها .

يقول الشهيد سيد قطب: "ولما كان وجود الرقيق في الجماعة من شأنه أن يساعد على هبوط المستوى الخلقي، وأن يعين على الترخص والإباحية بحكم ضعف حساسية الرقيق بالكرامة الإنسانية، عمل الإسلام على التخلص من الأرقاء كلما واتت الفرصة . حتى تتهيأ الأحوال العالمية لإلغاء نظام الرق كله، فأوجب إجابة الرقيق إلى طلب المكاتبة على حريته، وذلك في مقابل مبلغ من المال يؤديه فينال حريته"[1] .

ومن أساليب البلاغة هنا دخول الفاء في قوله: (فكاتبوهم) وذلك لتضمين الموصول معنى الشرطية، كأنه قيل: إن ابتغى الكتاب ما ملكت أيمانكم فكاتبوهم؛ تأكيداً لترتب الخير على تحقق مضمون صلة الموصول، بأن يكون كترتب الشروط على الشرط . ومعنى (إن علمتم فيهم خيراً) أي إن ظننتم أنهم لا يبتغون بذلك إلا تحرير أنفسهم، ولا يبتغون بذلك تمكناً من الإباق[2] . وقد نهى سبحانه عن الإكراه على البغاء، وجاء قوله تعالى: (لتبتغوا عرض الحياة الدنيا) توضيحاً لسبب الإكراه، ذلك السبب الحقير . وجاءت قوله (من بعد إكراههن) جملة اعتراضية؛ للدلالة على أن الإكراه هو سبب الرحمة والمغفرة لهن .

خامساً: تنظيم العلاقات بين الأقارب والأصدقاء ورفع الحرج منهم:

يمضي سياق الآيات في تنظيم العلاقات والارتباطات بين الأقارب والأصدقاء، فقال تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا مِن بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا

(1) في ظلال القرآن: سيد قطب: مرجع سابق: ٥/٢٨١ .

(2) التحرير والتنوير، أبو السعود، مرجع سابق: ٩/٤٧٧ .

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ۚ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾[1]. فقد رُوي أنهم كانوا يأكلون من هذه البيوت المذكورة دون استئذان ويستصحبون معهم العمي والعرج والمرضى؛ ليطعموهم؛ فتحرجوا أن يُطعموا، وتحرج هؤلاء أن يصحبوهم دون دعوة من أصحاب البيوت أو إذن، وذلك حين نزل قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ ﴾[2] وقد كانت حساسيتهم مرهفة، كانوا يحذرون دائماً أن يقعوا فيما نهى الله عنه، ويتحرجون أن يلموا بالمحظور ولو من بعيد[3]. وكانت هذه الطوائف تتحرج من مؤاكلة الأصحاء، خوفاً من استقذارهم إياهم، فالأعمى ربما سبقت يده إلى ما سبقت إليه عين أكياه وهو لا يشعر به، والأعرج قد يتفسح في مجلسه فيأخذ أكثر من موضعه فيضيق على جليسه، والمريض لا يخلو عن حالة تؤذي صاحبه[4].

وقيل: أنهم كانوا يدخلون على الرجل لطلب العلم، فإذا لم يكن عنده ما يطعمهم ذهب بهم إلى بيوت آبائه وأمهاته أو إلى بعض من سماهم الله عز وجل في الآية الكريمة، فكانوا يتحرجون من ذلك ويقولون: ذهب بنا إلى بيت غيره، ونعل أهله كارهون لذلك. وكذا كانوا يتحرجون من الأكل من أموال الذين كانوا إذا خرجوا إلى الغزو خلفوا هؤلاء الضعفاء في بيوتهم، ودفعوا إليهم مفاتيحها، وأذنوا لهم أن يأكلوا مما فيها، مخافة أن لا يكون إذنهم عن طيب نفس منهم. وكان غير هؤلاء أيضا يتحرجون من الأكل في بيوت غيرهم فقيل لهم: ليس على الطوائف المعدودة (ولا

---

(١) سورة النور الآية (٦١).

(٢) سورة البقرة الآية (١٨٨).

(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب: مرجع سابق: ٥/٢٩٥.

(٤) التحرير والتنوير ابو السعود ٥/٧٥.

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

على أنفسكم) أي عليكم وعلى من يماثلكم في الأحوال من المؤمنين حرج (أن تأكلوا) أي تأكلوا أنتم وهم معكم[1].

فمن الأساليب البلاغية في الآية، قوله: (صديقكم) صديق (فعيل) بمعنى فاعل وهو الصادق في المودة، وقد جعل في مرتبة القرابة مما هو موقور في النفوس من محبة الصلة مع الأصدقاء، وقد ورد اللفظ مفرداً، وفي ذلك سر بلاغي، يبينه الزمخشري إذ يقول: "فإن قلت: لم جمع الشافعين ووحد الصديق؟ قلت: لكثرة الشفعاء في العادة وقلة الصديق، ألا ترى أن الرجل إذا امتحن بإرهاق ظالم نهضت جماعة من أهل البلدة لشفاعته رحمة له وحسبة وإن لم يسبق له بأكثرهم معرفة. وأمّا الصديق وهو الصادق في ودادك الذي يهمه ما أهمك: فأعز من بيض الأنوق، وعن بعض الحكماء أنه سئل عن الصديق فقال: اسم لا معنى له"[2].

وإعادة جملة: (ليس عليكم جُناح) تأكيداً للأولى في قوله: (ولا على أنفسكم) إذ الجناح والحرج كالمترادفين[3].

والملاحظة في الآية أنه لم يذكر بيوت أولادهم، مع أنهم أقرب إلى الآكلين من الآباء، فهم أحق بأن يأكلوا من بيوتهم، وسر ذلك لأن الأبناء كائنون مع الآباء في بيوتهم كما يقول ابن عاشور[4]. وهذا ما أفاده الزمخشري وهو يتعرض للآية الكريمة بقوله: "فإن قلت: هلا ذكر الأولاد، قلت: دخل ذكرهم تحت قوله: (من بُيُوتِكُمْ) لأن ولد الرجل بعضه، وحكمه حكم نفسه"[5].

(١) المرجع السابق.

(٢) الكشاف: الزمخشري: مرجع سابق ٣/١١٩-١٢٠. والتحرير والتنوير: ابن عاشور مرجع سابق، ١٠/٣٤.

(٣) المرجع السابق. ١٠/ ٣٤.

(٤) التحرير والتنوير، ابن عاشور، مرجع سابق ١٠/ ٣٤.

(٥) الكشاف، الزمخشري، مرجع سابق ٣/٨٥.

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

سادساً: التزام طاعة الله ورسوله .

الإسلام عقيدة متحركة، لا توافق السلبية والجمود، فهي بمجرد تحققها في عالم الشعور تتحرك لتحقق مدلولها في الخارج؛ ولتترجم نفسها إلى حركة وإلى عمل في عالم الواقع كما يقول سيد قطب[1] . وأن الإيمان الصحيح متى استقر في القلب ظهرت آثاره في السلوك: وهذا ما وصف به الله تعالى المؤمنين في قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[2].

وقد جاءت هذه الآية متكئة على أساليب بلاغية كثيرة، منها: الاستئناف التقريري في قوله: (إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله) فهذا استئناف جيء به في أواخر الأحكام السابقة تقريراً لها وتأكيداً لوجوب مراعاتها وتكميلاً لها ببيان بعض آخر من جنسها[3]. ووصف الأمر بالجامع مجاز عقلي ذو علاقة سببية، ودلالته المبالغة[4]. ولفظ (على) دال على الاستعلاء، والمعنى أنهم يمتلكون هذا الأمر بمعية رسول الله (ﷺ) فقد شبهت حالهم هذه بحال من اعتلى الشيء وركبه .

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ تذييل مؤكد، يؤكد استغفار النبي (ﷺ) لهؤلاء، فالله غفور، مبالغ في مغفرة فرطات العباد، رحيم مبالغ في إفاضة آثار الرحمة عليهم، فهذه الجملة إذن تعليل للمغفرة الموعودة في ضمن الأمر بالاستغفار لأولئك المستأذنين[5].

والإسلام منهج حياة كامل؛ فهو ينظم حياة الإنسان في كل أطوارها ومراحلها، وفي كل علاقاتها وارتباطاتها، وفي كل حركاتها وسكناتها، ومن ثم يتولى بيان

---

(1) في ظلال القرآن. سيد قطب، مرجع سابق ٤/٢٥٣٢ . والتحرير والتنوير. ابن عاشور: مرجع سابق ١٨/٣٤

(2) سورة النور الآية (٦٢) .

(3) التحرير والتنوير، أبو السعود: مرجع سابق، ٥/٧٨ .

(4) ينظر الكشاف، الزمخشري: مرجع سابق ٣/٨٦ .

(5) التحرير والتنوير، أبو السعود: مرجع سابق، ٥/٧٨ .

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

الآداب اليومية الصغيرة ، كما يتولى بيان التكاليف العامة الكبيرة؛ وينسق بينها جميعاً، ويتجه بها إلى الله في النهاية، جاء ذلك ممثلاً في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[1] .

والآية لاشك زاخرة بالأساليب البلاغية، منها أسلوب القصر المستفاد من (إنما) وهو قصر موصوف على صفة، جيء به للتوكيد والتشديد، ولبيان صفة الإيمان الكاملة، التي لا تتحقق إلا لمن التزم التعاليم النبوية، وتأدب مع رسول الله (ﷺ) .

ولما كان الذهاب عن مجلس رسول الله (ﷺ) دون إذن منه من الجنايات العظيمة، أراد الله عزّ وجلّ أن يريهم عظم هذه الجناية، فقال تعالى: (وإذا كانوا معه على أمرٍ جامعٍ ...) فجعل ترك ذهابهم حتى يستأذنوه ثالث الإيمان بالله والإيمان برسوله .

والقصر بـ (إنما) في الآية قصر إضافي، قصر إفراد، أي لا غير أصحاب هذه الصفة من الذين أظهروا الإيمان، فجعل هذا الوصف علامة مميزة للمؤمنين الأحقاء عن المنافقين يومئذ، إذ لم يكن في المؤمنين الأحقاء يومئذ من ينصرف عن مجلس النبي (ﷺ) بدون إذنه، والمقصود هنا إظهار علامة المؤمنين وتمييزهم عن علامة المنافقين .

وقوله: (أمر جامع) أي الشأن والحال المهم، ووصفه بأنه جامع، أي الذي من شأنه أن يجتمع الناس لأجله للتشاور أو التعلم . والمعنى المراد: ما يجتمع المسلمون لأجله حول الرسول (ﷺ) في مجلسه أو في صلاة الجماعة، وهذا ما يقتضيه لفظا (مع) و(على) في

---

(1) سورة النور الآية (٦٢) .

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

قوله: (معه على أمر جامع) لإفادة (مع) معنى المشاركة، وإفادة (على) معنى التمكن منه[1].

وقد جاء تأكيد مفهوم الإيمان بأسلوب آخر في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾. يقول صاحب التحرير والتنوير: "والتوكيد والتشديد، جاء تصدير الجملة بـ (إنما) ثم أعقب بما يزيده توكيداً وتشديداً، حيث أعاده بأسلوب آخر، وهو قوله: (إنّ الذين يستئذنونك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله) ثم ضمنه شيئاً آخر، وهو: أنه جعل الاستئذان كالمصدق لصحة الإيمانين، ثم عرّض بحال المنافقين وتسللهم لواذاً"[2]. فالجملة هنا مؤكدة بـ (إن) والجملة الاسمية. والإشارة في قوله: (أولئك) دالة على التشريف والتعظيم، كما التشرف وتعظيم النبي (ﷺ) قد دل عليه بأسلوب الالتفات من الغيبة إلى الخطاب في قوله: (يستأذنونك).

أما قوله: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[3] ففيه أساليب بلاغية رائعة، تتمثل في الاستئناف المقرر لمضمون ما قبله، والالتفات من الغيبة إلى الخطاب الدال على مزيد الاعتناء بالشأن، أي لا تجعلوا دعوته (ﷺ) إياكم في الاعتقاد والعمل بها كدعاء بعضكم بعضاً، أي لا تقيسوا دعاءه عليه الصلاة والسلام إياكم على دعاء بعضكم بعضاً في حال من الأحوال، وأمر من الأمور، التي من جملتها التساهل فيه، والرجوع عن مجلسه عليه (ﷺ) بغير استئذان، فإن ذلك من المحرمات، وقيل: لا تجعلوا دعاءه عليه الصلاة والسلام ربه كدعاء صغيركم

---

(1) المرجع السابق: ١٠/٣٧.

(2) التحرير والتنوير، أبو السعود: مرجع سابق، ٥/٧٨

(3) سورة النور الآية (٦٣).

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

كبيركم، يجيبه مرة، ويرده أخرى، فإن دعاءه مستجاب لا مرد له عند الله عز وجل[1].

وقوله تعالى: (قد يعلم الله الذين يتسللون منكم ...) استئناف لموضوع الاستئذان في مجلس رسول الله (ﷺ) ووعيد لمخالفي أمره عليه الصلاة والسلام. يقول الزمخشري: "أدخل (قَدْ) ليؤكد علمه بما هم عليه من المخالفة عن الدين والنفاق، ومرجع توكيد العلم إلى توكيد الوعيد"[2].

والمعنى: أنّ جميع ما في السموات والأرض مختصّة به خلقاً وملكاً وعلماً، فكيف يخفى عليه أحوال المنافقين، وإن كانوا يجتهدون في سترها عن العيون وإخفائها، وسينبئهم يوم القيامة بما أبطنوا من سوء أعمالهم وسيجازيهم حق جزائهم.

وحذف المفعول في قوله: (فليحذر الذين يخالفون عن أمره) لأن المقصود بيان المخالف والمخالف عنه[3]. وإعادة الفعل صريحاً في قوله تعالى: (أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم) للاعتناء بالتحذير والتهديد.

ولما كان الاجتماع عند رسول الله (ﷺ) من الأمور المهمة، وقد أمرهم الله تعالى ألا ينصرفوا عن مجامع الرسول (ﷺ) إلا لعذر بعد إذنه، أوجب عليهم استجابة دعوة الرسول (ﷺ) إذا دعاهم، إذ يقول في سورة الأنفال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾[4] وقد أكد ذلك في سورة النور بقوله: (لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً) والمعنى: لا تجعلوا دعوة الرسول إياكم للحضور لديه مخيّرين

---

(1) التحرير والتنوير، أبو السعود، مرجع سابق، ٧٩/٥

(2) الكشاف: الزمخشري: مرجع سابق،٣/ ٨٧ .

(3) الكشاف: الزمخشري: مرجع سابق،٣/ ٨٧ .

(4) سورة الأنفال الآية (٢٤) .

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

في استجابتها كما تتخيرون في استجابة دعوة بعضكم بعضاً، فوجه الشبه المنفي بين الدعوتين هو الخيار في الإجابة. والغرض من هذه الجملة أن لا يتوهموا أن الواجب هو الثبات في مجامع الرسول إذا حضروها، وأنهم في حضورها إذا دُعوا إليها بالخيار.

وقد جاء الالتفات من الغيبة إلى خطاب المسلمين حثاً على تلقي الأمر بنشاط وهمة: فالخطاب للمؤمنين الذين تحدث عنهم الآية (إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله) وقوله: (إن الذين يستأذنونك) وقوله: (قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذاً) استئناف مفاده التهديد للذين كانوا سبباً في نزول هذه آية[1]. فقد كان من أعمال المنافقين أن يحضروا هذه المجامع، ثم يتسللوا منها، تفادياً من عمل يشق، أو سآمةً من سماع كلام لا يهتمون به؛ فعاب الله عليهم فعلهم هذا، وأعلم بمنافاته للإيمان، وأنه شعار النفاق؛ بأن أعرض عن وصف نفاق المنافقين واعتنى باتصاف المؤمنين الأحقاء بضد صفة المنافقين.

أما قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ ۖ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾[2] فهذا تذييل لما تقدم في هذه السورة كلها: وافتتاحه بحرف التنبيه إيذان بانتهاء الكلام، وتنبيه للناس ليعُوا ما يَرِد بعد حرف التنبيه، وهو أن الله مالك ما في السماوات والأرض، فهو يجازي عباده بما يستحقون، وهو عالم بما يفعلون. وقوله: (وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ) التفات من الخطاب إلى الغيبة، وفي هذا إعراض عن المنافقين بترك خطابهم[3].

والمعنى في قوله: (ما أنتم عليه) أي الأحوال المتصفين بها من خير وشر، وحرف الاستعلاء (على) استعارة في الحرف، دالة على التمكن. وقوله (فينبئهم بما عملوا) كناية عن الجزاء؛ لأن إعلامهم بأعمالهم لو لم يكن كناية عن الجزاء لما كانت له

---

(1) التحرير والتنوير، ابن عاشور، مرجع سابق: التحرير والتنوير ٤١/١٠.

(2) سورة النور الآية (٦٤).

(3) ينظر الكشاف، الزمخشري: مرجع سابق ٨٧/٣.

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

جدوى . وقوله: (والله بكل شيء عليم) تذييل لجملة: (قد يعلم ما أنتم عليه) لأنه أعم منه وأشمل، وفي هذا لطيفة بلاغية، وهي الاطلاع على أحوالهم لأنهم كانوا يستترون نفاقهم[1] .

خاتمة

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه، وبعد...

فقد عالج سياق الآيات في سورة النور أغلظ ما في الكيان البشري؛ لترقيته وتطهيره والارتفاع به إلى آفاق النور . فعالج شهوة العين والفرج، ورغبة التجريح والتشهير، ودفعة الغضب والغيظ، وعالج الفاحشة أن تشيع في النفس وأن تشيع في الحياة، وأن تشيع في القول. عالج كل ذلك بتشديد حد الزنا وحد القذف، وبعرض نموذج شنيع فظيع من رمي المحصنات الغافلات المؤمنات، وعالجه بالوسائل الواقية، بالاستئذان على البيوت، وغض البصر وإخفاء الزينة، والنهي عن مثيرات الفتنة وموقظات الشهوة، ثم بالإحصان، ومنع البغاء، وتحرير الرقيق، كل ذلك ليهيئ للنفوس وسائل العفة والاستعلاء والشفافية والإشراق[2] .

وقد كان هذا البحث الموسوم بـ (دور الأساليب البلاغية في تصوير المفاهيم التربوية – سورة النور دراسة وتطبيقاً) جولة بلاغية تربوية في ربوع سورة النور، استطاع الباحث من خلالها أن يبين دور الأساليب البلاغية في تصوير تلك المفاهيم التربوية الواردة في السورة، وقد توصل إلى النتائج التالية:

١. أن التركيب القرآني تركيب حيوي سام مشرق بليغ، يجمع الألفاظ والمعاني والإيقاع والصور.

٢. أن البيان القرآني يستخدم الأساليب البلاغية في مختلف موضوعاته، مما يضفي عليه جمالاً وحيوية وروعة .

---

(١) التحرير والتنوير، أبو السعود، مرجع سابق: ١٠/ ٤١ .

(٢) في ظلال القرآن: سيد قطب: ٥/٢٨٢٠ .

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

٣. أن البيان القرآني دقيق في اختيار ألفاظه وانتقاء كلماته .

٤. للمصطلح البلاغي دور بارز وأثر واضح في توضيح المفاهيم وكشف الأسرار .

٥. في سورة النور قيم تعبيرية، ولمسات فنية، كان لها دور كبير في كشف المحاور التربوية وتجليتها.

٦. في سورة النور مفاهيم تربوية، وقيم أخلاقية، ومعالجات اجتماعية، متكئة على أساليب بلاغية رفيعة .

٧. للمصطلح البلاغي خصوصيات ودور في قضية الإبداع الفني .

٨. تضمنت سورة النور كثير من الخصائص التي يمتاز بها النظم القرآني .

٩. أن الإيمان الصحيح متى ما استقر في القلب ظهر بآثاره في السلوك .

توصيات:

يوصي الباحث بما يلي:

١. ربط الدرس البلاغي في مستويات التعليم العام والعالي بنماذج من القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف؛ لامتلائهما بكنوز من القيم الفاضلة التي يستفيد منا الدارسون والباحثون .

٢. تزويد المكتبات بالبحوث التي تتناول المباحث البلاغية من خلال النص القرآني والحديث النبوي الشريف .

٣. دراسة سورة النور دراسة بلاغية تفصيلية؛ لاشتمالها على القيم التربوية والأساليب البلاغية .

مصادر ومراجع

١) القرآن الكريم .

٢) ابن منظور، "لسان العرب، دار المعارف، مادة قدم وأخر".

٣) أثر القرآن في تطور البلاغة العربية – أمين الخولي – دار الآنوار .

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

٤) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، أبو السعود، دار إحياء التراث العربي، : بيروت .

٥) أسرار البلاغة، عبد القاهر الجرجاني، شرح وتعليق محمد عبد المنعم خفاجي، مكتبة القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٣٩٩هـ- ١٩٧٩م .

٦) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، الرافعي، ضبط محمد سعيد العريان، القاهرة ١٣٧٥هـ ١٩٥٦م .

٧) البرهان في علوم القرآن، الزركشي، الطبعة الأولى، دار الفكر للطباعة والنشر، ١٤٠٨ هـ ١٩٨٨م .

٨) بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح، عبد المتعال الصعيدي، مكتبة الآداب، ١٤١٧هـ١٩٩٧م .

٩) البلاغة الواضحة، علي الجارم ومصطفى أمين- ١٩٨٢م القاهرة .

١٠)التصوير الفني في القرآن الكريم، الشهيد سيد قطب، مصر١٩٦٦م .

١١)التفسير الكبير، فخر الدين الرازي، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٥هـ .

١٢)تفسير سورة النور، ابن تيمية، دار الشعب .

١٣)تفسير سورة النور، أبو الأعلى المودودي .

١٤)التلخيص في علوم البلاغة، جلال الدين الخطيب القزويني، شرح عبد الرحمن البرقوقي، بيروت، ١٩٨٠م .

١٥)جواهر البلاغة، أحمد الهاشمي، تدقيق حسن نجار محمد، مكتبة الآداب، الطبعة الثانية١٤٢٦هـ٢٠٠٥م .

١٦)خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية، عبد العظيم المطعني، مكتبة وهبة، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ١٩٩٢م .

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

١٧)دراسات في البلاغة العربية، من بلاغة القرآن، محمد شعبان علوان، ونعمان شعبان علوان، الطبعة الثانية ١٩٩٨م.

١٨)دلالات التركيب، محمد محمد أبو موسى، الطبعة الثالثة، مكتبة وهبة، مصر.

١٩)دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، تعليق السيد محمد رشيد رضا، دار المعرفة، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م.

٢٠)روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الآلوسي، دار الفكر.

٢١)الزركشي، البرهان في علوم القرآن، طبعة عيسى الحلبي.

٢٢)سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، مطبعة صبيح.

٢٣)عبد القاهر الجرجاني بلاغته ونقده، أحمد مطلوب، الكويت.

٢٤)علم البيان، عبد العزيز عتيق، دار النهضة العربية، ط ١٤٠٥هـ- ١٩٨٥م.

٢٥)علم المعاني، عبد العزيز عتيق، دار النهضة العربية، ط ١٤٠٥هـ١٩٨٥م.

٢٦)علم المعاني، عثمان أبو النصر، مطبعة فائق، ط١٩٣٨م.

٢٧)فن البلاغة، عبد القادر حسين، نهضة مصر.

٢٨)فن التشبيه، علي الجندي، طبعة الأنجلو.

٢٩)في إعجاز القرآن، الرماني، دار المعارف.

٣٠)في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق، القاهرة، الطبعة الشرعية العاشرة، ١٤٠١هـ — ١٩٧١م.

٣١)الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، محمود بن عمر الزمخشري، دار المعرفة، بيروت، لبنان.

٣٢)مجاز القرآن، أبو عبيدة بن المثنى، تعليق محمد فؤاد، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط ١٩٥٤م.

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

٣٣)مدخل إلى ظلال القرآن، دراسة وتقييم صلاح عبد الفتاح الخالدي، مطبعة المنار، القاهرة، ط ١٣٢١هـ.

٣٤)مع النظم القرآني في سورة النور، الشحات محمد عبد الرحمن أبو ستيت، مطبعة الأمانة، الطبعة الأولى١٤٠٧هـ١٩٨٦م.

٣٥)مفتاح العلوم، السكاكي، تحقيق نعيم زرزور، الكتب العلمية، بيروت.

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com